لوحة قصصيّة

ومن لي بكبش الفداء فيما بينكما؟

بقلم: البشير بن سلامة

كانت الشمس حمراء تتوقد حياة، وتنحدر شيئاً فشيئاً بين جبلين أقتمين، زادتهما الحمرة نُزُوعاً إلى الظلمة. وكَانَ إبراهيم واقفاً ينظرُ إلى هذا الأفقِ المحمرّ وكأنه مرآة تبرز فيها لِحْيتُه البيضاء وقد جلّلها انعكاس لون الشفق بظلال ورديّة باهتة.

كان يقين إبراهيم أن هذه الشمس لن تُشرق غداً، إنها ستختفي بين الأفق فيضمها إليه ويعتصرها لتخرج إلى الناس في الضحى بيضاء، ناصعة، زهراءَ، وقّادةً، شمساً أخرى لم تعرفها البشرية.

قال إبراهيم لإسماعيل: يا ولدي انظر إلى هذه الشمس القديمة قِدَم آدم: لقد غشيت عينُها حُمرةً، واخلولقَ بريقُها طولَ رنُوٍ وشِدّةَ تحديق إلى البشر، يُضَحَّى به إلى الربَ طلباً للنجاة، في زورق يَشُقُّ بحرَ الدماء إلى شاطىء الحياة، إلى ديمومة البشر على أديم الأرض. إن يقيني أنك ستكون آخر أُضْحية تُطْوَى بها شمسٌ، لتبرز إلى الناس شمس: البشرُ قُبالتها يتحوّل إنساناً والانسان يحيا ليؤمن بالرب بدون فداءِ أخيه الانسان.

قال إسماعيل: إن اقتضت حكمة الرب أن أمدّ رقبتي ليحيا أخي الانسان ويعمّر في الأرض فإني لحكمة ربِّ العالمين لُمْتثل، ولإرادته لصاغر. ولكنْ كيف يا أبتِ أكون آخرَ أُضْحية وَرُؤْياك تُقِرُّ هذا الذي آمنت به البشرية منذ الأزَل وحفظته عربوناً لبقائها على وجه الأرض: لا رضاءَ للرّب إلا بالفداء، يُذبْحَ الواحد منّا على عتبة الايمان، ويَنْزِف دمه صاعداً إلى عنانِ السماء، شفاءً وَبلْسَماً للبشرية جمعاء؟

يا أبت، البشرية لم تولد منذ الأزل ولن تولد إلى الأبد من رحم الأمّ إلا بعد الوجأة الدموية تعقبها الحياة الحبلى بالمجهول المتقلّب المتحوّل.

قال إبراهيم: أنظر يا ولدي إلى الشمس كالجمرة تغيب وراء الأفق تنطفىء رويداً رويداً فيستحيل النور إلى سواد، ويهجم الليل بجحافِله الدكناء فيغض من أبصارنا ويغرقنا في بحار النوم طريقاً إلى الموت، سبيلاً إلى الرّب عبر الرؤيا...

قال إبراهيم: الرّؤيا يا بنيّ هي جسر يربطنا بالحياة، بديمومة الحياة، هي خيط من نور دَمَوِي، في مُدلهم النومِ يُوقظ موتنا اللّيلي، هي ذرة الإيمان الوقّادة تتراقص في أجواء ربّ الكائنات، في رحم الدنيا لتُحْيلها أملاً ورخاء وإيماناً.

وغابت بقايا الشمس وغرق الكون والقوم في سكون دمويّ، نزل مع النوم ليجعل الدنيا كوناً جديداً، شمسُه خيوطُها أرقّ من نسيج الإيمان تَنَزَّهَ عن الفداء بدم البشر.

وأشرق الصبح، ولفّت الشمس بأنوارها إبراهيم الواقف قُبالتها، وقد برزت لحيتُه بيضاء ناصعة، ولمع بصرُه شفّافاً، لم تُغَيِّرْهُ طَعَنَات النور المتوالية، طوال العقود المتتالية، وصاح في إسماعيل:

ـ أنْ أَبشْر، لقد صَدَقت الرؤيا ولقد صَدّقتها وأمر ربّ العالمين أن يكون فداءً لك ذبحٌ عظيم، لن تكون يا إسماعيل خاتمَ الأضاحي بل أوّلَ الناجين.. أكرمك ربّك فأنت من الصالحين تُؤْذِن بعهد للبشريّة فيه الانسان قد نجا من الذبح قرباناً لربّ العالمين وَقَدْ أشرقت عليه شمس الانسانية ساطعة بعد أن لفّ الأفق آخر شمس للبشريّة المُفْتداة.

وسعى إبراهيم يومَه، وبين يديه إسماعيل وإسحاق حتّى وقف قبالة شمس نُحَاس، بدأ يلفها بين فكي الجبلين أفق ظامىء أضاءه من بعيد قَمَرٌ باهت يدفع الظلمة بعناء.

قال إبراهيم في نفسه وقد جلّل لحيته البيضاء نور مزيج من شعاع الشمس وضوء القمر:

ـ أيا ربّ العالمين هذا إسماعيل وهذا إسحاق من المحسنين ادْرَأْ عنهما شيطان قابيل وهابيل بعد نجاة البشر من الذبح قرباناً لك فَأَحَلْت بحِكْمَتك البشريّة الآدميّة إلى إنسانيّة مشرقة الأنوار.

ثم صاح في الأخوين ونبرة الإشفاق تعلو صوته:

ـ ومن لي بكبش الفداء فيما بينكما؟ وكيف؟

تونس